كانا يتناولان من الحب كل ما يتناوله العاشقان على مسرح التمثيل، ولا يزيدان.

وكان يغازلها فتومي إليه بأصبعها كالمنذرة المتوعدة، فإذا نظر إلى عينيها لَمْ يدرِ أتستزيده أم تنهاه، ولكنه يدري أن الزيادة ترتفع بالنغمة إلى مقام النشوز.

وكان يكتب إليها فيفيض ويسترسل، ويذكر الشوق والوجد والأمل، فإذا لقيها بعد ذلك لَمْ يرَ منها ما ينم على استياء، ولم يسمع منها ما يدل على وصول الخطاب، وإنما يسمع الجواب باللحن والإيماء دون الإعراب والإفصاح.

وربما تواعدا إلى جلسةٍ من جلسات الصور المتحركة في مكانٍ لا غبار عليه، فيتحدثان بلسان بطل الرواية وبطلتها، ويسهبان ما احتملت الكناية الإسهاب، ثم يغيِّران سياق الحديث في غير اقتضابٍ ولا ابتسار.

وكانا أشبه بالنجمين السيَّارين في المنظومة الواحدة، لا يزالان يحومان في نطاقٍ واحدٍ، ويتجاذبان حول محورٍ واحدٍ، ولكنهما يحذران التقارب … لأنه اصطدام!

ولم تكن هند — وليكن اسمها هندًا — لتعتقد الرهبانية في همام، ولا لتزعم بينها وبين وجدانها أنه معزول عن عالم النساء، غير أنها لَمْ تكن تحفل اتصاله بالنساء ما دام اسمهن نساء لا يلوح من بينهن اسم امرأةٍ واحدةٍ، وشبح غرامٍ واحدٍ؛ فإن اسم النساء في هذه الحالة لا يدل على معنى، ولا انتقاص فيه لما بينهما من رعايةٍ واستئثارٍ.

فلما شعرت بأن النساء تحولن عنده إلى امرأة لها شأن غير شئون أخواتها من بنات حواء زارته على حين غرة في مكتب عمله، وهي الزيارة الأولى والأخيرة من قبيلها، ولم يكن لها مسوغ من طول الغيبة ولا امتناع الحديث في التليفون، فما شك لحظة في غرض الزيارة ولا في باعثها، وتوقع منها عتبًا عنيفًا على أسلوبها في التعبير الصامت المبين، ولكنه علم سلفًا أنها غير منصفة في عتبها؛ لأنه لَمْ يختلس منها شيئًا هو من حقها عليه، فرحب بها وأبدى لها استغرابه لزيارتها وابتهاجه بسؤالها عنه، وأنصت مترقبًا … فقالت بعد فترةٍ وصوتها يتهدج: لستُ زائرة ولا سائلة!

قال: إذن …

ولم يتمها لأنها نظرت إليه كمَن يستحلفه ألَّا يتكلم، وانحدرت من عينيها دمعتان.

فما تمالك نفسه أن تناول يدها ورفعها إلى فمه يقبِّلها ويعيد تقبيلها، فمانعته ولم تكف عن النظر إليه، ثم استجمعت عزمها ونهضت منصرفة، وهي تتمتم هامسةً: دع يدي ودعني! ثم انصرفت بعد أن سكن جأشها وزال من صفحة وجهها أثر الدموع.

لو جاءت هذه الزيارة وهمام في بداية العلاقة بسارة لما كان بعيدًا أن تقضي على تلك العلاقة، وأن ترد سارة اسمًا مغمورًا في عامة عنوان النساء.